المحاضرة الثالثة:
عصر التدوين

أولا: في ماهية التدوين:

أ- لغة: التدوين من الجذر (دون)، والتدوين هو **تقييد المتفرق وجمع المتشتت في ديوان،** ومصطلح (الديوان)- كما ورد ذكره عند صاحب اللسان- هو "مجتمع الصحف، وقال أبو عبيدة أنّها كلمة فارسية معربة.

ب- اصطلاحا :يستعمل التدوين اصطلاحا بمعني التصنيف والتأليف، وهو محاولة لنقل الألفاظ والكلمات اللسانية إلى أنظمة الخطوط الاصطلاحية.

ثانيا: في إشكالية التدوين في الفكر العربي القديم:

لا يزال الغموض يكتنف عصر التدوين ويلفّ كثيرًا من أخباره، فمصادرنا عنه معتمدة بالدرجة الأولى على الكتب التي ورثناها عن القدماء سواء كانت هذه الكتب قد ألفت في مراحل مبكرة منه، مثل كتاب سيبويه، ومالك، والشافعي، والجاحظ، أو كانت مؤلفة في زمن متأخر كالقرن السابع، وما تلاه، فالكتب التي اعتمد عليها أولئك في تأليف كتبهم غير موجودة، وليس هناك ما يدل على أنهم كتبوها معتمدين على الذاكرة، وإذا صحّ هذا في كتب القرن الثاني، فلا يصحّ في كتب القرون المتأخرة.

ورغم الاتفاق الحاصل اليوم بين أهل الرأي على معرفة الجاهليين بالكتابة من خلال تلك النقوش والأخبار الّتي وصلتنا من ذلك العصر، إلاّ أنّ الاختلاف ما زال واقعا بينهم في درجة انتشار الكتابة، فبعضهم يضيق من رقعة انتشارها في ذلك المجتمع حتّى يكاد ينفيها، ومن هؤلاء عمر الدقّاق الّذي يرى بأن العرب في هذه الفترة لم تكن لهم ثقافة مدونة وعلوم مسجلة، فلم يتركوا لنا "سوى نقوش قليلة تنبئ عمّا كان لم من دور حضاري"[1]، وهناك فريق آخر يقلّل من شأن ذيوع التدوين في تلك المرحلة، ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي بلاشير الّذي يعتقد أنّ هناك تدوينا لبعض القصائد الهامة في العصر الجاهلي إلاّ أنّ ذلك لم يشمل إلاّ جزء من آثار الشعراء الحضريين"[2]. وهناك فريق ثالث يذهب إلى أبعد من ذلك، فيؤكّد معرفة العرب الجاهليين بالكتابة واعتمادهم عليها في تدوين قسم كبير من تراثهم الشعري وأخبارهم وأنسابهم وأيامهم"[3].

---

[1] - عمر الدقاق: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، ص07. ويرى عمر الدقاق أنّ "هذه النقوش لم تكن متوافرة إلاّ في بعض المناطق العربية كجنوبي جزيرة العرب وشماليها، حيث توجد الأحجار والصخور، على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوبا وصحاري لم تسعف سكانها العرب في ترك مياسمهم على الأرض الّتي عاشوا فيها أحقابا مديدة.

[2] - رجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، مج01، ص120.

[3] - ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص23.

ثالثا: التدوين ومراحل تطوره:

1-التدوين في العصر الجاهلي: (475م- 622م)

يؤكّد عبد اللطيف صوفي أنّه "لم يعد هناك شكّ في أنّ العرب في الجاهلية كانوا على معرفة بالكتابة والتدوين، ولا سيّما في الحواضر كشمال الجزيرة العربية وجنوبها[4]. غير أنّ هذا التدوين كان محصورا في جماعة قليلة، فضلا على أنّ الكتابة كانت مقتصرة بشكل خاص على المعاملات والقضايا الاجتماعية مثل كتابة الصكوك والعهود والمواثيق وغيرها[5]، أمّا الأعمال الأدبية فلم تكن تدوّن إلى نادرا[6].

وترجع صعوبة التدوين في تلك الحقبة إلى أنّ الكتابة لم تكن تدون على الورق كما هي اليوم، وإنّما على الأحجار والصخور الّتي كانت شرائح منها تشكّل مادة أساسية للكتابة، إلى جانب مواد أخرى مثل عظام أكتاف الجمال، والخشب، والأديم، واللخاف، والعسب، والرقاع.

2- التدوين في صدر الاسلام: 14 ق هـ/610م- 40هـ/661م)

لقد انتشرت الكتابة في عهد النبيّ ﷺ على نطاق واسع مما كانت عليه في الجاهلية، انطلاقا من تأكيد القرآن الكريم على أهميتها ودورها في حياة الإنسان[7]. ولقد تجلّت أهمية الكتابة في هذا العصر مع كتابة القرآن الكريم الّذي يمثل فاتحة عهد التدوين عند العرب[8].

وقد كان كتاب الوحي هم أول كتبة الاسلام، تلاهم، بعد ذلك، كتاب أمور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق. ولم يعد الأمر مرتبطا، في هذا العصر، بتلك المعاملات الضيقة، وإنّ تعدى ذلك إلى تأليف الكتيبات[9].

3-التدوين في العصر الأموي: (40هـ/661م- 132هـ/750م)

وفي العصر الأموي توسّعت عملية التدوين، حيث مثّلت كتابة الحديث النبوي الشريف في القرن الثاني للهجرة مرحلة جديدة وخصبة في مسار تطور عملية التدوين عند العرب، وذلك لما اتسمت به هذه العملية من دقّة وتنظيم محكمين تحريا للصحة ودفعا

---

[4] - يؤكّد عبد اللطيف صوفي أنّ عددا من المستشرقين من أمثال جولد زيهر وبروكلمان وموير الّذين يجزمون بأن عرب الجاهلية "كانوا يدونون أشعارهم بالكتابة في بعض الأحيان". عبد اللطيف صوفي: اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، ص15.

[5] - إنّ التأكيد على أنّ العرب كانوا يستعملون الكتابة في مثل هذه المعاملات هو أنّ القرآن الكريم الّذي كان يخاطب العربي بما كان يعرفه ويقدر عليه، كان قد دعاه إلى تعزيز فكرة التعامل بالمواثيق بين الناس. حيث قال عزّ من قائل: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله﴾.

[6] - نفسه، ص15 و16.

[7] - وفي هذا الشأن نجد أنّ الله عزّ وجل يقسم بها وبأدواتها في أكثر من موضع، حيث يقول في سورة القلم: ﴿ن والقلم وما يسطرون(1)﴾. ويقول أيضا في سورة الطور: ﴿ والطور(1) وكتاب مسطور(2) في رقّ منشور(3)﴾. الطّور: الجبل، وفي هذه الآية أقسم الله سبحانه بالجبل الذي كلّم عليه النبي موسى (عليه السلام)، لتجلّي عظمة الله سبحانه في ذلك المكان. المسطور: المكتوب. والرّقّ بالفتح: ما يُكْتَبُ فيه، وهو جلد رقيق.

[8] - يرى بعض أهل العلم ومنهم عمر الدقاق أنّ القرآن هو أول نصّ عربي كامل اتخذ شكل كتاب، وهو ينفي بذلك وجود كتاب أخرى قبله كما زعم البعض. يُنظر: عمر الدقّاق: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، ص09.

[9] - حيث يُذكر في هذا الشأن أنّ عمر بن الخطّاب بلغه أنّه قد ظهر في أيدي النّاس كتب، فاستنكرها وكرهها، وقال: "أيّها الناس، إنّه قد بلغني أنّه ظهرت في أيديكم كتب، فأحبّها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتابا إلاّ أتاني به، فأرى فيه رأيي". قال فظنّوا أنّه يريد أن ينظر فيها، ويقوّمها على أمر لا يكون فيها اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنّار ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص140.

لكل تزييف وتدليس. وقد وضعت لذلك قواعد ومناهج بحث كانت رائدة في ميدان البحث التاريخي، وفاتحة عهد جديد من التأليف عند العرب. ثمّ زادت اتساعا لتشمل كثيرا من المسائل المتّصلة بالقرآن والسنة، وبالدين الجديد على وجه العموم، فظهر كتب التفسير، ودراسة رواية الحديث، والبحث في سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومغازيه، وأخبار الفتوحات، وتاريخ العرب والمسلمين. ثمّ توسّعت- بعد ذلك- أكثر فأكثر لتشمل كثيرا من العلوم العربية ولاسيما منها العلوم اللغوية والأدبية.

جامع القول:

ولعلّ هذه المحاولات الأولى الّتي لم تكن سوى تدوين لنقول مختلفة أسهمت بشكل ما في بناء الأرضية الّتي سمحت بظهور أولى المصنّفات الأدبية، حيث هبّ العلماء في العصر العباسي (132هـ/750م- 656 هـ/1285) إلى تهذيب ما كتب في الصّحف وتدوين ما حفظ في الصدور، ورتبوه وبوبوه وصنفوه كتبا، أصبحت مصادر لكلّ من أراد أنّ يطّلع على ثقافة الشعوب العربية القديمة الّتي كانت تعيش على الرواية والمشافهة.